الرحلة المباركة

للهجرة منذ أن وجد الإنسان -الذي لم يعرف الهدوء والسكون والدعة منذ خلقه- مفهوم بالمعنى العام، ولزمرة الصفوة من بين الخلق، وللمرشدين الدالين على طريق النور مفهوم بالمعنى الخاص. ولها علاقة مهمة -في الوقت نفسه- بتاريخ المدنية.

أجل!.. فمن جانب نرى هذا الإنسان الذي يعاني الغربة في الطريق الطويل لدرب عمره الطويل منذ أن وُلد من بطن أمه، ثم انتقل من الطفولة إلى الشباب والنضج، ومن الشباب إلى الكهولة فالهرم فالموت؛ ومن جانب آخر نرى المرشدين العمالقة الذين ينيرون العصور بالمشاعل التي يحملونها في أيديهم... الذين يتركون بصماتهم في العهود المختلفة لتاريخ الإنسانية... والذين يرتفعون بالساعين وراءهم إلى ذرى المدنية... والذين يضيئون أرواح محبيهم بشرارات صدورهم، ويهيئونهم في إقليم الإيمان والأمل إلى الخلود... الذين يقومون بأفكارهم النيرة بعكس أنوار الجنة وألوانها وظلالها وتماوجها، ويزيلون كل الثقوب السوداء، ويؤسسون رياض الأمل وبساتينه حتى في أشد أدوار اليأس والقنوط... هؤلاء المرشدون مسافرون أيضا ومهاجرون طوال أعمارهم... هجرة لا تعرف لها نهاية أو راحة في سبيل أفكارهم ودعوتهم وعقيدتهم.

وعادة ما يتم ذكر ثلاثية الإيمان والهجرة والجهاد كأركان مختلفة لحقيقة واحدة في الذكر الحكيم. وهذا من أسطع الأدلة على ما لهذه المسألة من

أهمية، أي أهمية الإيمان ثم الهجرة والجهاد في سبيله، والاستمرار في الجهاد والنضال في البيئة الجديدة وأمام أناس جدد حسب الشروط المستجدة دون أي فتور أو توقف. هذا هو ينبوع الخضر عليه السلام ذو العيون الثلاثة التي يرده هؤلاء الربانيون، ويشربون منه صباح مساء. فالذين يشربون من هذا الينبوع سيمتلئون إيمانا ويقذفون بشرارات إضاءة لكل ركن مظلم. وعندما تكثر الطرق وعورة، وتكفهر الأجواء، وتسود الجاهلية، لا يفكرون في مال ولا ولد، ولا بيت أو عيال، بل يخرجون مهاجرين إلى بلد آخر، ومدينة أخرى.

ومهما كان المبدأ والدعوة ســـامية والفكر مفيدا وصحيحا وأصيلا، ومهما كانت الرسالة سنية ومنيرة فلا مفر من قيام السامعين الجدد لها بإبداء مقاومة لها وممانعة ومعارضة، ووضع مصاعب وعراقيل أمامها. وهذا أمر طبيعي بنسبة معينة ومتوقع. لذا فإن كل من أتى بإيمان ومبدأ جديد لمجتمعه، وبمُثُل جديدة وعشق وأمل جديد إما أن يستمر في كفاحه في مجتمعه بشكل ظاهر أو خفي، أو يقوم باكتشاف بلاد أخرى يسقي فيها القلوب الظامئة لدعوته التي يرى أنه مكلف بنشرها وتبليغها لكونه رجل دعوة ورجل قلب وعشق.

ففي الشق والاحتمال الأول على كل فرد وهب قلبه لفكرته ومبدئه أن يكون حذرا غاية الحذر، وأن يأخذ كل التدابير الضرورية تجاه جميع العوامل السلبية الموجودة لكي يتجاوزها منذ البداية. وإلا لا يستحيل فقط تحقيق ما يأمله من تنوير وإرشاد، بل قد يؤدي خطأ صغير أو هفوة إلى تفاقم الظروف الصعبة، وزيادة ثقلها وضغطها، وتلبد الغيوم السوداء في السماء إلى درجة يصعب فيها العيش. ولكن من الصعب، بل قد يكون من المستحيل على جميع أفراد جماعة كبيرة تحقيق مثل هذا الأمر في كل وقت، وتطبيق هذا الحذر وهذه اليقظة. في مثل هذه الظروف يكون من الضروري البحث عن مكان آخر لاستمرار الدعوة والإرشاد. ولا سبيل آخر هناك.

من المعتاد منذ القديم أن يجد كل فكر جديد الاستنكار والاستهانة والإهانة في موطنه. ولكن كثيرا ما لقى هذا الفكر الجديد ولقي ممثل هذا الفكر الترحيب والتأييد في موطن آخر لم يعرف طفولة وشباب صاحب هذا الفكر ودعوته.

لذا كان هذا الأمر قدرا مشتركا لجميع الربانيين والمرشدين والدعاة... الإيمان والعشق أولا... ثم النضال والجهاد ضد جميع انحرافات المجتمع وأخطائه... ثم إذا اقتضى الأمر ترك الوطن والديار والبيت والتضحية بكل شيء، في سبيل السعادة الإنسانية والبحث عن قلوب مستعدة أخرى، وشد الرحال من جديد في هذه السبيل.

كل بعث جديد ونهضة جديدة وحركة إحياء جديدة تحتوي على هذين الأساسين، وعلى هاتين المرحلتين. المرحلة الأولى هي مرحلة اكتساب الفرد شخصية جديدة... شخصية ملتهبة بالإيمان، متعلقة به بوجد وبعشق، قد تجاوزت نفسها وتخطتها لتدخل في عبودية خالصة لله تعالى. والجهاد في هذه المرحلة متوجه بكل أبعاده للخلاص من دسائس النفس، والتغلب على أنانيتها وهواها، ولتجديد بنائها وإنشائها. لذا كان هذا الجهاد هو "الجهاد الأكبر". أما المرحلة الثانية فهي مرحلة إفاضة هذا الإيمان الذي أصبح جذوة متقدة في كل قلب... إفاضته كسيل من النور على من حواليه بمختلف موجات النور والإشعاع. وكثيرا ما تترافق الهجرة مع تحقق هذه المرحلة.

والحقيقة أنه يمكن الحديث عن هجرة قلبية وروحية في الأدوار المتعددة لهذه المرحلة. هجرة تحدث عند تحول الإنسان من وضعه السابق إلى الوضع المطلوب، ومن وضعه الهامد المتسم باللامبالاة إلى الحركة والنشاط والنظام، ومن وضعه الجامد المتفسخ إلى تجديد النفس وإصلاحها، والارتفاع من مستنقع الآثام الخانقة إلى حياة القلب والروح... هناك معنى ما للهجرة في جميع هذه الأدوار، والشخص يعد مهاجرا في أثنائها على الدوام. ونحن نرى

أن أداء الهجرة في المرحلة الثانية مرتبط بمدى أداء هذه الهجرات في المرحلة الأولى بشكل تام. فمن ينجح في الهجرة من نفسه لقلبه، ومن جسمه لروحه، ومن المظاهر الخارجية الزائفة للغنى العميق، ومن ذاته إلى ذاته ينجح في الهجرة الأخرى في معظم الأحيان. ومن لم يستطع هضم هذا تماما، لا يستطيع أداء الهجرة الأخرى، ولا تمثيلها كما يجب.

أول من بدأ الهجرة بهذا المعنى الأنبياء العظام الذين يعدون أقمار الإنسانية وشموسها مثل إبراهيم ولوط وموسى وعيسى عليهم السلام. ثم سلك هذا الطريق المضيء فخر الإنسانية وإمامها وسيد الزمان والمكان محمد ﷺ وأبقى باب الهجرة مفتوحا حتى يوم القيامة للآتين من ورائه.

إن الهجرة في سبيل الحق تعالى مقدسة إلى درجة أن صفة الهجرة كانت لدى جماعة المهاجرين الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل العقيدة التي آمنوا بها وفي سبيل إمامها ومرشدها أحب صفة عندهم، ومن بين جميع الصفات الأخرى خوطبوا بهذه الصفة، صفة "المهاجرين"، فما أعظم هذا المعنى! وعندما بُحث آنذاك عن مبدأ لتاريخ ذلك العهد من بين المناسبات والتواريخ الأخرى، كيوم ميلاد الرسول ﷺ، أو تاريخ بدء الوحي، أو قيام الأنصار بنصرة هذا الدين أو معركة بدر أو فتح مكة، وكلها مناسبات عظيمة، وتعدّ كل منها جوهرة على هامة الزمن، كان اختيار الهجرة أمراً له معناه الكبير الذي يجب الوقوف عنده.

هـــذا وإن كل فرد هاجر من أجل مبدأ ســـامٍ يشعر في كل لحظة من لحظات حياته بهاجس سبب هجرته، ويحس بحجم مسؤولية هذه الهجرة، فينظم حياته كلها على ضوئها. كما أن تخلصه من الأنظار المتتبعة لعورات طفولته وشبابه في مسقط رأسه سيزيد من راحته ومن حركته دون أي قيود أو أي عائق، ولا يتيسر له هذا إلا بالهجرة. لأنه ما من أحد إلا ولـــه هنات في صغره وفي شبابه يمكن أن تستغل من قبل أعدائه. بينما يكتسب بالهجرة

محيطا جديدا يكون فيه موضع التقدير والاحترام لأفكاره النيرة وتضحياته الكبيرة. وسواء أكان هذا العامل، أو عوامل أخرى فإن الأقوام التي غيرت مجرى التاريخ وأغلقت عهدا وفتحت عهدا آخر كانوا من الأقوام المهاجرة.

يقول علماء الاجتماع بأن معظم المدنيات أسست من قبل الأفراد والجماعات المهاجرة. وبحث المؤرخ المعروف "ارنولد توينبي" وكتب عن سبع وعشرين مدنية وضعتها وأسستها الأقوام المهاجرة. وهذا إشارة إلى أن الأقوام المهاجرة هي التي أسست حكمها وسيطرتها في التاريخ الإنساني طوال جميع العصور. لأنه لم يكن بمقدور أحد التصدي لأقوام يملكون مثل هذه الروح الديناميكية، ولم يتركوا أنفسهم للحياة الناعمة المترفة... هؤلاء الأقوام المتهيئون على الدوام لهجر كل شيء... والمتعودون على مقارعة الخطوب التي تظهر في أثناء نضالهم... الذين يعيش كل فرد منهم كجندي ينتظر أمر السفر والرحيل في كل حين... لم يكن بمقدور أحد التصدي لهم.

هاكم إذن أول الربانيين والمرشدين والدعاة، وأول معلمي المدنية من الصحابة. وهاكم الذين أسسوا إمبراطورية من بضعة قبائل! هؤلاء الناس الذين نزلوا كالصواعق فوق ظلام العصور، رأوا الراحة في مقارعة الصعاب، واستهانوا بالموت وبما وراءه لكي يبقوا في حيوية دافقة، ولكي يخلدوا فقد جددوا أنفسهم في ظل مختلف الشروط والظروف، وظلوا شامخين وأقوياء على مر العصور، لذا أصبحوا قوة لا يمكن التغلب عليها.

يا ليتنا استطعنا تخليص أجيالنا الحالية من اعتياد الحياة السهلة الناعمة، ومن هوى النفس، ليزيّنوا أرواحهم بمشاعر علوية وسامية، ليتحولوا إلى ربانيين يتحملون الصعاب والشدائد ويستمرؤنها. عندئذ نستطيع كأمة التخلص من تأثير الحسابات الصغيرة، والأذواق الخسيسة، فلا نغير اتجاهنا بسبب ضوائق أو مشاكل غير مهمة.

الإثم

الإثم انهيار داخلي... ونـــوع من مخالفة الفطرة السليمة ومناقضتها... والذي يقع في الإثم شخص مسكين نكد الحظ اســـتسلم للشيطان بكل قابلياته وبكل ملكاته الروحية، وترك نفسه لعذاب الضمير ولوخزات القلب. فإن استمر في اقتراف الإثم نفسه، فهذا يعني أنه ترك حبل نفسه على غاربها، و لم تعد لديه أي إرادة، ولا أي مقاومة، ولا أي قدرة لتجديد نفسه.

الإثم ليس إلا صفعة على وجه الإرادة، وزقوم أُشرِبه الروح. وما أحط الإنسان الذي يتلذذ بالإثم! وما أكثر تســـيب الإنسان الـــذي دمّر بالإثم روحه!..

الإثم عاصفة هوجاء تطفئ جميع الاستعدادات والمشاعر السامية المهداة للإنسان، ودخان سامّ يحيط بحياته القلبية من جميع جوانبها. فمن تعرض لهذه العاصفة جف وذبل، ومن تعرض لهذا الدخان اختنق ومات.

ما أن يدخل الإنسان في دائرة الإثم حتى تنقلب لديه المقاييس والموازين. فكما يكون مصير الطائرة التي لا تحسب حسابا للجاذبية الأرضية وللقوانين الفطرية هو السقوط والارتطام بالأرض، كذلك الأمر بالنســـبة لمن يلج بيئة عفنة منعتها يد الحكمة.

وعندما قام آدم عليه السلام بفتح مثل هذه الثغرة في حيـــاتـــه الشخصية، لم يستطع تجاوزها إلا بســـيول من الدموع التي لو جمعتها لكانت بحرا. أما الشيطان فلم يستطع الخلاص من بئر الإثم التي وقع فيها رأسا على عقب، فكان الهلاك مصيره.

كم من شاب أهيف كغصن البان،

وكم من أميرة وردية الخدّ،

وكم من سلطان عظيم،

وكم من صاحب تاج كبير...

كم من هؤلاء فتح بخطوة واحـــدة أشـــرعته لبحار الإثم ولكنهم لم يستطيعوا الرجوع أو العودة من سفرهم هذا أبدا. فالإثم يسري في الإنسان رويدا رويدا... ويداعب هواه كنسيم ويلاعبه، يتربع هناك على عرش قلبه. ثم يتحكم بمشاعر الإنسان تحكما لا يستطيع الخلاص من قبضته إلا صاحب إرادة قوية، وبعناية من السماء. والأسوأ من هذا أن المرء عندما يمخر عباب الإثم يبتعد عن نفسه وينأى عنها إلى درجة أنه لا يشـــعر ولا يدرك مدى التغير الذي أصابه، ولا يسمع، ولا يلتفت إلى صراخ روحه، أي أن عالم الحس وعالم القلب عنده أصبح هامدا متبلدا لا ينبض بأي حركة.

الآثام متكومة على الطريق الذي يسلكه الإنسان، وهي تترقبه وتترصده مثل حية رقطاء. ومـــع أنـــه من الممكن التخلص من إحداها، ولكن من الصعب عليه التخلص منها جميعا وعدم التورط فيها وهو يواصل سيره في طريقه، فهذا يحتاج إلى إرادة من فولاذ. وإلا كان هذا شبيها بسيارة قد تعطل فيها مقسم السرعات، وتريد منها أن تجتاز بك الطرق الملتوية الوعرة للجبال الشم. فمصير مثل هذه السيارة أنها تستقر في حفرة من الحفر أو في قاع واد من الوديان.

الآثام أنواع مختلفة، في مقدمتها -كما أخبرنا بها الصادق المصدوق- هذه السلسلة من الآثام التي تقشعر منها الأبدان: أن تشرك بالله، أو أن تقتل نفسا بغير حق، أو أن تعق والديك، أو أن تدلي بشهادة زور، أو أن تفر من الزحف، أو أن ترمي المحصنات من النساء... الخ.

تعد هذه الآثام انحرافات كبيرة في عالم الفكر وفي العالم الداخلي للإنسان وفي العائلة والمجتمع. فإن لم تتخذ التدابير للحيلولة دونها في أوانها المناسب انهارت العائلة والمجتمع.

أجل! إن على الأسرة والمجتمع والوطن أن يحذر جدا من أصحاب الأرواح الفجة التي لم تتهذب بالتوحيد. فأصحاب هذه الأرواح المنكودة التي اسودّت بالدخان، وصدأت حتى فقدت شفافيتها، وحل السواد محل البياض الناصع في العالم الداخلي لهم لا يتورعون -إن لم يكن اليوم فغداً- من حرق الوطن وكل شيء. ولا يمكن أبدا التهوين من مقدار الخيانات التي اقترفها هؤلاء الذين ختم الله على قلوبهم وعلى أبصارهم ووضع عليها غشاوة فيما مضى من الزمن وفي هذا الزمن.

ولكن يجب التنويه بأننا -في المطاف الأخير- نحن المسئولون عن الذين باعوا الوطن لهذا أو لذاك، وحولوا الغابات والبساتين إلى صحارى جرداء، ونحن المسؤولون عن هؤلاء الجهال عديمي الإيمان والضمير من الدمى بأيدي الآخرين الذين اقترفوا كل هذه الإساءات.

أجل! نحن الذين أهملنا ونحن الذين أفسدنا... نحن الذين جعلنا عديمي الإيمان هؤلاء لا يبالون بأي شيء... ونحن الذين سندفع الحساب... سندفع الحساب اليوم ونحن في القبضة الحديدية للحوادث والبلايا... وسندفع غدا أمام التاريخ... ثم سندفعه يوم المحكمة الكبرى... يوم لا يعزب عن ربك مثقال حبة من خردل.

إن إبعاد أمة كاملة عن ذاتها وعن هويتها، وزرع أدمغتها بأفكار غريبة عنها، وهدم محرابها، وتحويل منبرها، ليست من الآثام التي يمكن أن يغفرها التاريخ ولا المحكمة الإلهية يوم الحساب.

إنه إثم كبير أن تُحرَم الأجيال من العقيدة، ومن الفكر ومن موازين ومقاييس الحق ومن الاستقامة، وتحويلها إلى تجمعات فوضوية وجعلها وسيلة

هجوم واعتداء. لأن الهجوم والاعتداء على الأمة وعلى أجيالها وعلى دينها وعلى ثرواتها إثم كبير. ثم إن القيام بمعاقبة هذه الأرواح المتمردة لا يقلّ عن السابق إثمها.

إن من الإثم إهمال الأجيال... إثم أنْ تُحوَّل قلوبها وأرواحها إلى قلوب وأرواح خالية من الإيمان ومن الطمأنينة... إثم جعلها عدوة لماضيها وخصما له، وعدوة لتاريخها ولجذورها... إثم أن تحول –بأشـــربة أجنبية– عن ذاتها وعن هويتها... إثم أن تُحرم من نقاط استنادها المعنوية والمقدسة... أجل إنه إثم... وأيّ إثم!

ولكن هناك إثم أكبر من كل ما سبق... وهو عدم عدّ ما فعله وما يفعله هؤلاء المجرمون العتاة الذين قلبوا الساحة إلى ساحة حريق ودمار وفيضان... عدم عدّ ما يقترفونه إثما. أجل!.. إن كان هناك إثم لا يغفره الله تعالى ولا ينساه التاريخ فهو هذا الإثم... أيْ إن عدم عدّ الإثم إثما يشكل إثما بذاته، كما أن عدم التوقي والخشية منه أو الحذر من الاقتراب منه يعتبر رأس الآثام.

وحتى حدس ومعرفة هذا الإثم المسؤول عن كل هذه الآثام العديدة التي نخرت مجتمعنا من الداخل خفية وبخبث، ثم تسليمه إلى القبضة الحديدية للمحاسبة وللمساءلة للحكم عليه، فمن الصعب توقع تجديد الأمة نفسها بنفسها، بل حتى بقاؤها حية. وصدق الشاعر محمد عاكف حين قال:

لا يعيش المجتمع من دون مشاعر،
دُلّني على أمة تعيش ميتة المشاعر...

ثم إن القيام بالمبالغة في معاقبة هؤلاء –بعد كل سوء التوجيه هذا– لا يقل إثما عن السابق.

التوبة

التوبة هي تجديد المرء لنفسه، ونوع من التعمير والإصلاح الداخلي، أي إعادة للتوازن القلبي الذي اختل نتيجة الأفكار والتصرفات المنحرفة، أو بالأصح هي فرار من الحق تعالى إلى الحق تعالى، أو هي انتقال من غضبه إلى لطفه، ولجوء من حسابه ومؤاخذته إلى رحمته وعنايته.

ويمكن تعريف التوبة أيضا بأنها محاسبة للذات تحت وطأة شعور الإثم. أي قيام الذات والإرادة بالوقوف كالجبل الأشم تجاه النفس التي تريد أن تحيا حياة غير مسؤولة، وتجاه الإثم وعدم إفساح المجال له.

فإن كان الإثم تدحرج غير متوازن في حفرة، فالتوبة -حسب مقتضياتها- قفزة آنية للخروج منها. وبتعبير آخر إن كان الإثم جرحا في الروح ناتجا عن سهو مؤقت للضمير عن المراقبة، فالتوبة هي وقوع القلب في عذاب دائم، وبدء بمراقبة جدية وبسيطرة حازمة على النفس، مما تكسب المشاعر الإنسانية قوة وعزما جديدين.

ولما كان الإثم ناتجا عن تحكم الشيطان وبتأثير من النفس، فالتوبة هي دفاع المشاعر ضد الشيطان، وجهدها في علاج عدم التوازن الذي حدث في الروح.

تقوم التوبة -بعكس الإثم الذي يؤدي إلى تآكل الروح وتعريتها- بتزيين جوانب القلب وفرش الزهور فيها بـ"الكلمة الطيبة" -التي هي أجمل الكلمات والأفكار وأعذبها- والوقوف أمام جميع التخريبات والتآكلات والحيلولة دونها. فكم تكون محاولة التوبة التي تحرك القلوب مبجلة قبل أن

يأتي اليوم الذي تشخص فيه الأبصار وتبلغ فيه القلوب الحناجر. فكم نتمنى الوصول إلى المستوى الذي نستطيع فيه بدموعنا المسكوبة تعمير وسد كل ثغرة يفتحها الإثم في قلوبنا.

أجل!.. التوبة عنوان للرجوع الرجولي، وبخلافه تكون كل كلمة باطلة، وكل تصرف خداعا. لأنه إن لم يتم تلافي ما فات، ولم تسد ثغرات الإثم التي أحدثت ندوباً في بعض مساحات الزمن، فادعاء الندم على الذنوب التي ارتُكبت دون أي دمع في العين ودون أي رجفة في المشاعر، ودون أي ألم في الروح ادعاء فارغ وبعيد عن القبول.

الآثام أنواع مختلفة وتختلف التوبة باختلاف الآثام. الإخلال بوحدة الأمة ذنب كبير. لذا يعد مرتكب هذا الإثم أكبر مجرم لدى الخالق ولدى الخلق. لذا ما كانت التوبة من مثل هذا الإثم تُقبل إلا بعد إرجاع الحياة الاجتماعية التي أصبح عاليها سافلها إلى سابق عهدها وإلى سابق صحتها ووحدتها. وإلا فإن ادعاء هؤلاء -في الوقت الذي يعاني المجتمع من هذا المأزق المخيف ومن هذا الخطر الداهم- بأنهم نادمون ليس سوى انخداع وخداع. أجل إن التوبة من مثل هذا الإثم لا يكون إلا بإشعار المجتمع كله، وبكل وضوح وبكل وسيلة، الرجوع عن هذه الأفكار المنحرفة التي بذرت في كل مفاصل المجتمع ومزقته وخربته. لأن توقع الحصول على العفو وعلى المغفرة من هذا الإثم بتوبة صامتة وندم سري وغير معلن... مثل هذا التوقع تعلق كاذب بالأمل، وانخداع. لأن النـــزاعات الداخلية ستستمر وســـيزداد التدخل والضغط الخارجي الذي يستفيد من التشتت ومن الضعف الداخلي ويقوى. لأن نظام أي مجتمع وحياته ورفاهه -أي كون التوفيق الإلهي معهم- مرتبط بالتفاهم والتساند الموجود بين أفراد ذلك المجتمع وتجمعاته وأحزابه، أو في الأقل عيشهم في سلام دون خلافات وخصومات. وعلى العكس من ذلك إن كانت هناك أمة قد تلبد أفق مجتمعها بغيوم سوداء من الخلاف والشقاق والنـــزاع، فعليها القيام بتوبة جماعية. ومثل هذه التوبة الجماعية متعلقة

بالتحول في موضوع العفو إلى حواري من حواريي روح الله عيسى عليه السلام في حياة المحبة والمغفرة والعفو والتسامح. ويتحقق هذا بمساندة كل فرد ومعاونة كل فكر بالذي يحمله من صفة الحق وأسلوبه، ومدّ يد العون له، وتشجيع كل حملة خير وتقدير كل تضحية. ويتهيأ لي عدم وجود علاج أنجع من هذا لتضميد جراحاتنا النازفة منذ عصر كامل، فليس هناك علاج مجرب وموضوعي أفضل من هذا العلاج. ويكاد يكون من المستحيل العثور اليوم على بديل آخر له.

ولكن كم من المؤلم أننا نبحث عن طرق سهلة -كمراسيم توبة في ليلة الجمعة- للخروج من تحت وطأة وبال الآثام التي أثقلت كواهلنا. بينما إن كان هذا الطريق المختصر من التوبة والندم كافيا للآثام الفردية، فإن الأمر إن كان متعلقا بجرائم ذات صلة بالمجتمع فهذا لا يكفي بل يطلب انتفاضة جماعية وتجديدا للنفس.

آه من مثل هذا الهروب من عزائم الأمور، وآه من هذا التوجه لكل أمر سهل ورخيص!

إن على كل مؤسسة تمثل المجتمع أن تتوب، وتكون توبتها بفهم انواع الأخطاء التي قرضتها وأنهكتها وأفلستها، والقيام من ثم بتلافيها.

وتكون توبة الكادر الإداري بفهم وفحص جرائمه وأخطائه وذنوبه، ثم اتخاذ موقف آخر مضاد تجاهه ومعاكس، وتجديد نفسه وإحيائها.وإلا فإن عقد خمسين ألفا من مراسيم الندامة وشعائرها لا تفيد شروى نقير، ولا تقطع بها خطوة واحدة إلى الأمام. فتبا وألف تبٍّ لمن يرى الداء دواء، وتبا ألف تبٍّ لمن خُدع بهذا مرارا وتكرارا!

تتسامى أفراد المؤسسات العدلية والقضائية بقراراتها الصائبة والصحيحة التي ابتغت بها وجه الحق والعدل، وتكون مرشحة لأسمى المراتب الأخروية. وكل ساعة عدل منها تعد أعواما من عمل الخير في حقها لدى الحق تعالى.

ولا تقل عن درجتها هذه عندما تندم وترجع إلى نفسها بعد أي قرار خاطئ. ولكنها عندما لا تبالي بالحق، وعندما ترى أن الحق للقوة وللقوي، وتضحي بالحق على مذبح القوة لا تستحق حينذاك أي عفو أو توبة.

والشيء نفسه وارد بالنسبة لمؤسسات التربية والتعليم. فما دامت هذه المؤسسات محافظة على مشاعر الأمة وأفكارها ومقدساتها، ومدافعة عنها وصائنة لها، استحقت كل تبجيل وتقدير. فإن روجت للأفكار المنحرفة والمشوهة سقطت إلى درك أسفل من درك اللصوص والمجرمين. وما لم تعد إلى رشدها وتتخذ موقفاً حازما تجاه الأفكار الأجنبية والمخربة، فلا تقبل منها توبة، ولا مغفرة لها.

أما جميع المؤسسات السياسية، والأفراد والجماعات غير السياسية، وكذلك المفكرون والكتّاب والمرشدون فإن انحصر اهتمامهم ومحبتهم لأنفسهم ولجماعتهم فقط، وقاموا بإظهار الخصومة والعداوة لأهل الحق من خارج حلقاتهم، أو خارج نطاقهم، فهم في إثم كبير، ولا سبيل أمام كل فرد منهم إلا طرق باب التوبة، والتوبة هنا فرض عليهم أيما فرض.

أجل!.. فعلى جميع هذه المؤسسات والأفراد أن يراقبوا أنفسهم مرة أخرى عن كثب، فيروا نصيبهم من الإهمال والأخطاء والآثام ضمن سفينة الأمة الجانحة التي يركبونها، فيحاولوا بكل وسعهم تلافيها. فهذا واجبهم الذي لا يمكنهم إهماله. وإلا كان ديدن هؤلاء حتى اليوم البحث عن الأخطاء خارجهم، وخارج جماعتهم. فإن استمروا في البحث عن معاذير لاتهام الآخرين وتشويه سمعتهم، فليس بعيدا أن نتعرض إلى مصائب ومشاكل لا نستطيع حملها أو الصمود أمامها.

أجل!.. لقد كان أوخم آثامنا أننا رأينا الآخرين مذنبين، ورأينا أنفسنا أبرياء على الدوام. ولكوننا لم نتخلص من هذه العادة ومن هذه العقلية، فقد فسدت الأجواء الاجتماعية وقست، حيث تسارعت وتائر الإنقسام

والتشرذم. لذا كان على جميع من لهم علاقة بمصير هذه الأمة وقدرها من الناحية المادية أو المعنوية، وعلى جميع أصحاب الأرواح المخلصة الذين نذروا أنفسهم لهذه الأمة أن يعترفوا بذنوبهم ويتوبوا.

وعلى الذين يسعون لاهثين وراء المناصب... الذين على أعينهم غشاوة من حبهم المحصور على حزبهم، وفي آذانهم صمم... الذين تركوا بأفكارهم الشاذة الأجيال الصاعدة دون قلب ولا روح... الذيـــن يرون بطغيانهم وجبروتهم أن الحق للقوة، والذين أعلنوا الحرب على كل ما يخالف أفكارهم حتى وإن كان من مصدر إلهي... الذيـــن لا يرون ولا يدافعون إلا عن مصالحهم ومنافعهم... الذيـــن لا يرون بأسا من أي تزوير أو كذب أو خداع وتدليس... الذيـــن يرون كل وسيلة مشروعة من أجل الوصول إلى غاياتهم وأهدافهم... الذيـــن يتقلبون ويتلونون مع كل عهد... على كل هؤلاء أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يعلنوا وللمرة الأخيرة عن توبتهم باسم الإنسانية وأن يجددوا قسمهم ويمينهم عليها.

مأ أسعد من أدرك ذنبه فأسرع بالتوبة!.. وما أســـعد من كان صلبا لا يتهاون مع نفسه، وليّنا ومسامحا مع الآخرين من أهل الحق!

عندما تنبض القلوب برقة

تقوم الأيـــام والليالي المباركة بإعطاء كل شيء ولكل شـــخص طعمها ولونها ونكهتها الخاصة بها. وتضيف إلى كل شيء رفقا وليونة، وتسوقه إلى عالم من الخيـــال، وإلى أعماق تتجاوز تصوراتنا. ففي كل مكان... في السوق والمدرسة... في المعبد والمعسكر... يُحدَس سريـــان سحر عميق في سماء المؤمنين، حيث يبرق جـــو الآخرة، وتلتمع المحبة الإلهية في العيون. وفي ساعات الليل بالأخص تبتسم الأضواء الملونة في عيوننا، وتهمس لنا نغمات بُعد آخر من أبعاد الوجود. وكل وجه نـــراه في البيوت أو في المعابد أو في أماكن العمل يبدو لنا وكأنه يعيش رحلة وصال وعشق ممض، ويتماوج من حين لآخر مع الأماني والآمال، ثم يتحول إلى شلال من العواطف التي تجري لتصب في اللانهاية.

وكلما فارت مشاعر العبـــادة والطاعة في أنفسنا تفور معها قابليتنا في العيش والشعور بالأشياء على نحو آخر، وتســـحبنا إلى أغوارها البعيدة. في مثل هـــذه اللحظات والأوقات تضعف روابطنا الجسديـــة والجسمانية، وتتخلص أرواحنا من همومها ومشاغلها اليومية، ونحس أننا ارتفعنا وسمونا إلى ذروة نراقب منها الوجود بأكمله. هنا نقوم بحب واحتضان كل شيء... الجبال والسهول والأودية... البيوت التي نشأنا فيها... بيوت العبادة التي تهيأنا في جوها للآخرة... نحتضن ونحب كل شيء ونعب منه ونتنفسه... الحي منه والجماد، لأن كل شيء وجـــه من وجـــوه الجمال الـــذي خرج وانساب من يده تعالى.

في هذه الأيام والليالي التي تولد كطوفان من النور، يظهر نوع من العشق والمعرفة اللدنية في أحوال المؤمنين العامة عند قيامهم وقعودهم. والأشواق الروحية التي تتغذى بالإيمان وبالمعرفة وبالعشق تتجاوز وتتقدم على جميع اللذائذ والأذواق المادية، ويبدأ كل واحد بالتوجه نحو أفق مقدس من المعرفة حسب ما يملك من قابلية للعرفان. وفي هذا الطريق يصل في نهاية المراحل التي يقطعها في كل يوم إلى وصال صغير ليتوج به سفره المبارك هذا. والذين يغذون أرواحهم كل يوم بمثل هذا الوصال، ومن الخيالات المتداعية المترافقة لجميع هذه الوصالات وللوصال الكبير، ومن أنواع الجمال المتدفقة إلى مشـــاعرهم، ومن براعم الأمل النابتة في صلب عباداتهم، ومن الأذواق الروحية التي يحصلون عليها من المعاني الهادرة من القلوب والعيون المؤمنة، يرجعون لأنفسهم، وينغمرون مع هـــذه المعاني في صمت مهيب، حيث يَدَعون أنفسهم لأحلام الوصال الكبير الذي سيتحقق في ذلك العالم الآخر، ويتخيلون أنفسهم وكأنهم يسبحون في نهر ســـاحر، وأنهم أبحروا إلى ما فوق الزمان.

هؤلاء السعداء الذين وصلوا إلى بحر الســـعادة واللذة والشوق الذي يبحثون عنه، يحسون في كل آن، ويرون أنواعا من الجمال اللدني الساحر في منافذ قلوبهم، والأزهارَ المفتحة التي هي من تجليات نظر المحبوب ﷻ، ويحسون بها وكأنها حزم منعكسة من جماله... يحسون بهذا فيتخيلون وكأنهم في حديقة عامرة بأنواع الثمار والفواكه، وبأنـــواع الزهور والورود... والنسيم الرقيق يهبّ عليهم من كل جانب... وكلما قطفوا ثمرة أو وردة أحسوا بدفء الأمل في الألطاف التي يعدها المعبود تعالى-الذي عبدوه طوال حياتهم، ووضعوا جباههم على عتبة بابه- لهم في المستقبل، فيكادون يغيبون عن وعيهم... كأنهم يحدسون بموجات من نسائم وعود -في بُعد آخر غير هذا البعد الدنيوي- لبعض النعم التي لم يصلوا إليها، وبعض المكافآت التي لم يحصلوا عليها، فيحسون في عالم مشاعرهم وكأنهم يحتضنون الرحمة والشفقة

العميقة والأزلية للرحمن الرحيم. وضمن هذه الحالة النفسية والروحية يحسون بالحياة بشكل مختلف، ويحبونها بشكل أعمق، ويحتضنون بكل لطف ورقة كلَّ شيء مرتبط به تعالى.

الرجـــال والنســـاء... الشباب والشـــيوخ... العالمون وغير العالمين... العارفون وغير العارفين... ترى في أحوال كل هؤلاء وفي تصرفاتهم في ليالي هذه الأيام المباركة وفي أظهرها ظرفا يفوق ظرف ما جـــاء في الأساطير وفي القصص، حيث يلتحفون بالجمال المعنوي لهذه الأيام المباركة، وتصطبغ وجوههم بمهابة الإيمان على وجوههم وهم يتطلعون إلى الأضواء الآتية من وراء أفق هـــذا العالم، ويخلفون وراءهم في كل شيء لونهم ورائحتهم، وينتقلون في أعماق مشاعرهم إلى عالم الآخـــرة، ويذوبون فيه ويكادون يقتربون من الملائكة. ويكاد الإنسان يلمح في وجوههم بسمات أضواء القناديل المضاءة في الأزقة وبين مآذن الجوامع ونظراتها ومشاعرها المنثورة مثل اللآلئ، فيخيل إليه أنه يرى أمامه الوجوه المباركة للأصفياء الموجودين في خياله.

أجل!.. قد يكون أصحاب هذه الوجوه الصبوحة -التي يتماوج فيها الإيمان والعشق والرغبة ولذة الوصال- والمشتاقون والمعجبون والســـعداء صامتين، ولكن المعاني المنبثقة عن أرواحهم، والمنعكسة على سلوكهم وأطوارهم ونظراتهم تبدي بعدا لاهوتيا يصعب الوصول إليه، ويكاد يسحر الموجودين حواليهم ممن يملكون ما يكفي من رهافة الحس.

يتخلص بعضنا في مثل هذه المواسم من الحدود الضيقة للمنطق فيدع نفسه في يد الفرح والانفعال والبكاء وكأنه قد دُعي لعالَم قدسي... ويتخيل بعضنا بأنه قد تهيأ لسفر بين النجوم وأنه يسابق الشمس والقمر، ويحسب أن أنفاسه تختلط بأنفاس الملائكة، إلى درجة أن قلوبنا تلين إلى أقصى حـــد، وتدمع أعيننا، ونشعر بأن العديد من عُقَدنا التي نحس بوجودها في أنفسنا قد

لانت وانحلت. أما دموعنا المنسكبة فتبدو وكأنها تطهر جميع العقد الموجودة في أعماق أرواحنا، وتهب الراحة والاطمئنان لضمائرنا.

يبدأ كل واحد منا -حسب سعة المعاني التي تملأ قلبه- بالإحساس بمعان عميقة لم يكن بإمكانه الإحساس بها من قبلُ، وذلك بسبب الضغوط الجسمية والمادية عليه. يشب الشباب بعواطف قوية كأنهم يدفعون ضريبة الشباب والعنفوان... أما الكهول فيحاولون أن يكونوا أكثر عطاء وكسبا استنادا إلى ما اكتسبوه من حيطة من تجاربهم الروحية والمعرفية... أما الشيوخ فتهتاج عندهم مشاعر التهيؤ للأبدية وللسعادة الأبدية التي تنتظرهم، وللعالم الذي تطير فيه الأرواح... أيْ يفتح الجميع عيون قلوبهم ومنافذها، فكأن كل واحد يستمع إلى ما لم يسمعه جيدا من قبلُ حول قدره ومصيره. يفرح لحظه الحسن، أو يغتم لحظه النكد، ثم يتطلع ويرمي بنظره بأمل إلى المستقبل، وتتعمق في وجوههم خطوط المعاني. أما الأصوات المرتفعة من المآذن والجوامع المعلنة للشعائر الإسلامية فتزيد الجو العام لذة أخرى وغنى آخر، إلى درجة أن كل شيء... من الريح التي تهب، ومن المطر الذي ينهمر، نحس بأنه يحمل عطر نفحات إلهية تمس وجوهنا، وتترك في قلوبنا إكسير الخلود. أما نسيم السَّحَر... آه من نسيم السحر!.. إنه يهبّ كنفَس من اللانهاية، ويثير قلوبنا ويجعلها تنبض بقوة وكأنه يحمل لطفا وفضلا، لأن هذه الدقائق السحرية التي نتوجه فيها نحوه تبدو لنا -بفضل إيماننا وعشقنا وآمالنا- وكأنها عصارة الحقيقة الأبدية، فتنسكب على قلوبنا، وتنبت في أعماق أرواحنا براعم فواكه شجرة طوبى، وتأخذ بيدنا لتجول بنا في سفوح الجنات.

الله تعالى جميل وصاحب ألطاف على الدوام. ولكننا لا نشعر بعمق هذه المعاني إلا في أوقات معينة. أجل!.. ففي مواسم معينة والتي نعدها ربيع أرواحنا يجذب تعالى جميع عواطف قلوبنا، وجميع مشاعرنا نحوه، ويجعل من

جماله وسحر جاذبيته قوة لا تقاوم، ويحيينا في كل آن وأوان بلطف جديد منه. وأنـــا لا أتصور وجود أي لذة تعادل مثل هذه اللذة الحاصلة عن هذا الطريق في هـــذه القلوب المباركة... لا أتصور هذا، لأن مثل هـــذه اللذة الروحية تنبع من العشق الإلهي لدى الإنسان ومن الارتباط به تعالى، ومن موجـــات الإحسان لصـــاحب الرحمة اللامتناهية وألطافه. وهـــذه الألطاف والإحسان منه تعالى يكون لامتناهيا ودون حدود بقدر وبمقياس عشق الإنسان وإخلاصه، وكونه صادرا من أعماق قلبه.

الشهر الماثل بالمغفرة

إن كان هناك شهر لا تنتهي نشوته، ولا تنفد بهجته، ولا يبلى الوجد عنده فهو شهر رمضان. إن أيام شهر رمضان ولياليها التي تقدّم لنا بأعذب لغة لُباب وجوهر جميع المواسم والشهور العطرة للسنة وروحها ومعناها الحقيقي، وما يترشح منها من عصارة، تحيط كل لحظة القلوب بعذوبة وسعادة وبهجة لا مثيل لها، وتحتضنها بحنان وشفقة، وتربّت عليها بكل محبة، وتستجيشها بأشواق الحياة.

إن أيام رمضان في كل أرجاء العالم ولا سيما في البلدان الإسلامية وبين المسلمين، وبالأخص في دنيانا وفي جونا وعالمنا تكون مركزاً لكل الاهتمامات، وميداناً لجميع الأذواق الروحية، ومسرحا لجميع العواطف الجياشة، وعمودا حلزونيا من النور للتسامي، وفرصة لتطوير كل الخصائص الإنسانية وتوسعتها وتطوير مزاياها.

إن أيام شهر رمضان الذي يطلع كل نهار فيه وكل ليل بمشاعر مختلفة... إن أيامه تمس القلوب بروح جديد، وبرفق قبل الرحيل، وتجمع أشتات المجتمع وتلملمها في بوتقة واحدة، وتفتح طريق الجماعة أمام المنـــزوين، وتزيل الغربة عن قلوبهم، وتقدم للجميع وليمة فكر ومشاعر مختلفة الأبعاد، وتهيؤهم للحياة من جديد.

يتضمخ كل شيء في شهر رمضان بالعطر والنور... بدءً من الكتابات

بين مآذن الجوامع[1] إلى القناديل الموجودة على يمين وعلى يسار الطرق المؤدية إلى المساجد، إلى مصابيح بيوتنا، إلى الطهر البادي في وجوه المؤمنين، إلى النور في القلوب. أما أوقات السحور التي تهبّ عليها نسائم السحر في هذه الأيام التي يسترجع فيها الديـــن شبابه، والإفطار الذي يكون مظهرا لألطاف سرية... فهي أوقات ذات طعم وذات ضياء خاص ولهجة خاصة تخالط القلوب. ولا يصل إلى مرتبة هذه السعادة سوى العشق الذي يطير بأجنحة أمل الوصال... كأنه كان هناك ستار بين الإنسان وبين شوقه إلى اللانهاية حتى مجيء شـــهر رمضان، وكأن هذا الستار ينفرج بالصوم. وكأن العشق والشوق اللذيـــن كانا في غفوة في ركن من أركان القلب حتى تلك اللحظة يستيقظان فجأة، ويفوران ويستوليان على كيان الإنسان، وينقلبان إلى رغبة لا تقاوم في الوصال. وفي سبيل تحقيق هذه الرغبة المقدسة يحاول الإنسان اغتنام التجليات التي تهبّ في أوقـــات الســـحر، وتقييم أوقات الصلوات التي هي منافذ تنتظر الإنسان لمشاهدة آفاق وراء أفق الدنيا هذه. وفي صلوات التراويح تفور المشاعر وتتصاعد بالرَّوْح والريحان، وتعبّ الأرواح من النفحات الإلهية كؤوسا بعد كؤوس، فإذا بكل واحد -كل حسب درجته- قد انقلب إلى شخص أخروي، واقترب من طهر الملائكة.

ونظراً لكون شهر رمضان شـــهر القرآن يجد الإنسان -حتى الذي ابتعد عن القرآن طوال السنة- نفسه الظامئة في الجو النوراني للقرآن... عند ذلك تنهمر عليه المعاني والأسرار القرآنية وألطافها، وتسقي كل وديان نفسه وروحه التي أوشكت أن تجفّ وتيبس، وتقلب عالم قلوبهم من أدناها إلى أقصاها إلى بســـاتين وحدائق زهور وورود، وتبعث فيهم فرحة الوجود، وتجعلهم يسمعون بالقرآن كل عالم الوجود ويحسون به، فيرتفعون بهذه

(١) في أيام شهر رمضان يقوم كل جامع في المدن الكبرى في تركيا بكتابة عبارات الترحيب بالمصابيح الملونة بهذا الشهر بين المآذن. (المترجم)

الأحاسيس والأفكار ويسمون... يحسون بأن الوجود كله والخلق كله يتنفس بالقرآن، فيرتجفون ويرتعشون ويكادون يغيبون عن أنفسهم. وفي أحيان كثيرة تنهمر دموعهم على خدودهم، ويشعرون بأن الستار يرتفع، وأنهم أصبحوا أقرب إلى مولاهم وخالقهم من كل قريب، فيحسون بلذة لا يستطيعون وصفها.

إن فهم المحتويات اللدنية للقرآن لا يتيسر إلا لمن يسمع في القرآن صوت الوجود كله، ويستمع في أعماقه إلى كل موسيقى روح الإنسان من خوف وأمل، ومن حزن وفرح، ومن غم وبهجة. والأرواح السامية المتجاوزة للزمن التي تستمع إلى القرآن وكأنه أنـــزل عليها تجد فيه لذة فواكه الجنة وألوان وجمال حدائق الفردوس، وأنهار وشلالات سفوح الريّان ومناظرها، فتتوحد وتنساب معها. وأصحاب القلوب الصافية الذيـــن ينكبون على القرآن في الأيام الشفيفة لشـــهر رمضان، وبمقاييس القلب المملوء توقيرا واحتراما، وينـــزلون إلى أعماقه، يصلون كل لحظة إلى قيمة مختلفة من قيم الآخرة، ويتعرفون في كل آن على بعد آخر من أبعاد البقاء. المادة في فكر هؤلاء وفي حياتهم تكمل ما وراء المادة، ويكون المعنى هـــو المحتوى الحقيقي للمادة وقيمتها، ويظهر كل شيء بقيمته المتخفية وراء الأســـتار. ترى في أوجه هؤلاء -لكونهم متهيئين لاستقبال تجليات الأسماء الإلهية وصفاتها- قابلية خفية للحدس، وفهما متميزا وفريدا، ونضجا وكمالا متأتيا من امتزاجه بالقرآن والبكاء عند تلاوتـــه، وارتباطه بالآخرة، وصفاءً وغنى وصدقا وإخلاصا ولطافة مزينة بالأذواق الذهبية للإيمان، وجاذبية وسحرا ومروءة وشهامة. وحتى لو لم ينطق هؤلاء أو يتكلموا فإن هذه المعاني تبدو وتظهر وتطفح على السطح من سلوكهم وتصرفاتهم وأطوارهم ونظراتهم وتنعكس وتجد صداها فيما حواليهم.

لا يوجد شـــهر آخر مليء بالقرآن، يكون ليله بهذا النور، ونهاره بهذا

الضياء المضمخ بعطر القرآن. والإنسان في كل شهر رمضان جديد يرى من جديد نضارة القرآن ونبعه الآتي من وراء السماوات، وما يحويه من زينة المعارف الإلهية، وإشاراته المنبثة في أرجاء الكون وأرجاء المكان. فيفور عنده العشق الإلهي، ويرى ويسمع ويحدس آثاره التي تبرق في وجوه المؤمنين به. أجل!.. ففي شهر رمضان يبرق القرآن ويلتمع في هذه الوجوه المضيئة التي نحتها القدر، وفي هذه العيون التي تبرق بأعمق المعاني المتعلقة بالآخرة. ونرى الجميع رجالا ونساءً... شـــيوخا وشبابا... فقراء وأغنياء... عامة الناس وخاصتهم... علماء وأميين... نراهم وقد أخذوا -من ناحية طراز المعيشة والحياة- نصيبهم من هذا الجزء من الشريط الزمني فامتزجوا بشهر رمضان وتشربوه وتنفسوا به.

أجل!.. كل إنسان -حسب قابليته واستعداده- يصعد به إلى بعد آخر، ويتخلص من العديد من الرذائل التي تحط من قيمة الإنسان، ويتطهر من الأدناس والأوساخ المعنوية، ويزداد نـــورا ويكون أهلا للجنة. إن شهر رمضان بيُمْنه وبركته غنيّ إلى درجة أن كل من يلتجئ إلى ظله يستفيد من ثروته وغناه، ويستطيع الوصول إلى سلطنة الآخرة شابا كان أم شيخا... مؤمنا قويا كان أم واهنا... ذكيا كان أم أحمق... عاقلا كان أم مجنونا... عارفا بما وراء الأستار أم جاهلا به... مؤهلا كان للعمل أم غير مؤهل... مُوَسْوِساً كان أم مقداما لا يبالي بشيء... مخلوقا لكي يكون حاكما وزعيما، أم مخلوقا تابعا ومحكوما... صامدا كان أمام جميع المصاعب، أم فَرقاً يسقط من أول هزة... متشائما يئنّ طوال حياته أم محتفظا بأمله حتى وهو في جهنم... طُفَيْليا كان ومعتمدا على الآخرين طوال عمره أم صاحب إرادة لا يفلّها الحديد أمام جميع المصاعب والهموم... أم إنسانا خطط حياته للأكل والشرب والنوم والراحة والكسل فقط. أجل!.. كل هذه الأصناف المختلفة بعضها عن بعض لا بد أن يستفيدوا من الجو النوراني لشهر رمضان

وإن كانت الاستفادة بمقاييس ودرجات مختلفة، ويتغير شيء فيهم كل حسب حاله ويتميزوا، حتى يصلوا إلى حال وإلى مرتبة أخرى.

إن جمال شهر رمضان ونورانيته في العيون المتفتحة لهذا النور، وعظمة معنى الوجود التي يحتويها، تجد صداها السرّي ضمن أطياف معينة وبدرجات مختلفة على هذه المجموعات المختلفة، بروح وطعم وجو ومعنى خاص بهذا الشهر، وتسري في القلوب سريانا لا تستطيع أكثر الرؤوس عنادا أن تقاومه بل تستسلم له.

ليالي شهر رمضان التي تلف بأسرارها كل شيء تكون مؤنسة وحلوة، ونهاره الذي يحتضن مشاعر الإنسان وأفكاره بلطف وحلاوة يكون دافئا وحريري الملمس... تكون الصدور المؤمنة فوارة بالمشاعر العميقة... والأصوات الداعية إلى الله تنضح بالحنان... والمعاني التي تعبر عن كل هذا مؤثرة إلى درجة أن الذين يستطيعون فتح صدورهم وقلوبهم لشهر الغفران هذا يبتعدون -ولو بشكل مؤقت- عن القلق والهموم ويشعرون بسعادة الجنة.

العيد السعيد

حينما تُقبل الأيام على بلدي...

يكون ذلك اليـــوم عيدنـــا...

العيد يوم فرح وسرور، ولا سيما للذين يدركون معناه، ويبدو الناس في الأعياد وهم سعداء ومطمئنون، لكونهم أصبحوا مظهرا للعفو الإلهي، وتخلصوا من تبعات أخطائهم وذنوبهم، ولكونهم يعيشون الماضي والمستقبل معا بشكل متداخل.

كل عيد يبث في الأرواح اطمئنانا، وتتداعى سلسلة من ذكريات البشر والسرور على سيماء الوطن، ليصل إلى الكمال. والسعادة التي تنبعث من تداعي هذه الذكريات في القلوب في الأعياد قد تفوق بألوانها وعمقها بشر هذه الأيام وسرورها وزينتها.

في مثل هذه الأيام نضع الماضي والمستقبل معا في خيالنا... نقبِّل أيدي آبائنا وأجدادنا العظام... والوجوه النيرة الحلوة لأحفادنا... فنشعر في قلوبنا بسعادة لا توصف للماضي وللمستقبل. ومع أن أصحاب الأنفس المتشائمة، والقلوب السوداوية لا يفهمون معنى هذا فإن جميع ألوان غبطة الماضي المجيد، وكل الآمال العريضة للمستقبل تشكل بكل ألوان الطيف إكليلاً فوق رؤوسنا ونحن نعيش احتفالات هذه الأيام.

أجل!.. فأي سعادة يمكن أن تضاهي سعادة تأمل لوحة الماضي بكل عظمته، مع المنظر الأخاذ للمستقبل في إطار واحد ؟!.

إن روح الإنسان -من ناحية المشاعر والفكر- يستطيع الإحساس بنشوة الأذواق القلبية العائدة للماضي وللمستقبل ويعيشها مثلما يعيش لحظات أذواقه الحالية، فيتجاوز الزمن ويدرك العيد ويحس بـــه كأنه طار بأجنحة إلى أبعاد أخرى. ويختلف العيـــد المُدْرَك بهذا المعنى تماما عن بيانات التهنئة والمعايدات الروتينية المذاعة في هـــذه الأعيـــاد. فالعيد عند أصحاب هذه المعايدات يوم باهت بعيد عن الحياة ومعزول ومنبتّ عن الماضي وعن المستقبل، وكأنه مجرد يوم توزع فيه الحلويات على الصغار.

يأتيني كل عيد بزينة المستقبل الملونة بأنواع الألوان، ويعكس في قلبي -قبل رحيله- أحلى لوحات الماضي وأروعها. فكم تملأني النشوة عندما أشاهد بعين الخيال الأجيال الســـعيدة القادمة التي وصلت إلى مرتبة العرفان من الناحية الماديـــة والمعنوية، ورهفت مشاعرها، وتوحدت مع أرواحها، وتعانقت بعضها مع البعض الآخر... أتخيل جيلا ملأ العلم عقله... وملأ الإيمان بالخالق العظيم وحبـــه قلبه... وامتلأ بحب الوجـــود... ووصل إلى ساحل الاطمئنان. هذه المشاعر التي تسكبها هذه الخواطر في قلبي أحسها في أعماق وجداني، فأعيش دقائق لا مثيل لها. وفي ذلك الإقليم والجو الخيالي أرى الكهول وقد ارتقوا إلى مستوى الإنسانية الحقة... والشباب وقد ألجموا أهواءهم... ووجـــوه الصغار -الشبيهة بزهرة الشمس- وكأنها تنـــورت بسنا ألوان وأنوار منهمرة عليهم من فوق... والنساء اللائي هيأن كل هذا الجو الساحر... أتخيل هذا فأحس بالسعادة وهي تسري في كل مفصل من مفاصلي، وفي كل عرق من عروقي.

في ذلك الجـــو أتخيل إدارة الدولـــة وكأنها مودعة في أيدي أحكم الأشـــخاص وأكفئهم، الذين يتناولون كل شيء بدقة وبحساسية من يقوم بالتطريز... إدارة ترى فيها الرعايا والرعاة المرشدين العارفين في صف واحد في تلاؤم وتناغم... هذا هـــو ما أتخيله لسيناريو المستقبل... وقد تفتحت

ورود العدالة في كل مكان. أما الظلم فضعيف هزيل لا حول له ولا قوة... لا ترى لظالم صولة أو جولة، ولا تسمع أنينا لمظلوم.

تمر المدارس في خيالي في العيد وقد أصبحت مختبرات لحل أسرار الكون وطلاسمه، حيث أرى هناك أساتذة عمالقة يهيئون طلابهم لفكّ أسرار ما وراء السماوات... أساتذة ترى الوضاءة في وجوههم، والإخلاص في قلوبهم، والاستقامة في تفكيرهم.

في الأعياد أتخيل كأني أسمع طبول الغزو في الثغور... وتطرق سمعي أصوات جيوش الفتح وأصوات مدافعها... أصوات جيوش الفتح التي تصدت للأخطار لتأسيس توازن بين الدول، وضحت بأسباب الراحة والدعة وكل مباهج الحياة.

يتفتح في قلبي في كل عيد جميع ألوان الأناشيد والتكبير. وفي كل عيد ينتشي روحي بإلهاماته وبالذكريات التي يحييها في قلبي، فأحس وكأنني قد تطهرت وتجددت تماما، حتى أتمنى لو أن كل الأيام كانت أعيادا.

قد يبدو هذا للبعض ضربا من الخيال. بينما يرى فيه البعض الآخر مُثُلا سامية سبق وأن كانت لها آلاف الأمثلة، وتفسيرا موجزا لحقيقة أزلية خالدة ظهرت بوادرها في أفقنا منذ زمن.